الصلة بين علماء تونس وباياتها كما تمثّلها المستعرب جان قانياج

نجاة الطاهر قرفال

جامعة الزيتونة(تونس) guerfeell@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2020/04/22 تاريخ القبول: 2020/06/25 تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

لم يخل عهد من عهود البايات من مشاركة ما بين العلماء والسلطة. ولقد تقلّد علماء مدينة تونس في مختلف مراحل تاريخها، ولاسيّما حقبة الاحتلال الفرنسيّ الفعليّ، مناصب مهمّة مثل الإفتاء والقضاء والوزارة... وكانت الصلة بين طرفي المعادلة موسومة بالمدّ والجزر. وكان هذا، على وجه الافتراض المبدئيّ، من أهمّ المداخل التي عوّل عليها المحتلّ ليشرّع لحضوره الأمنيّ والحضاريّ. تحاول ورقة البحث هذه اختبار حضور الصلة بين علماء مدينة تونس وباياتها في أحد أهمّ مصنّفات المستعرب جان قانياج(Ganiage, Jean)(1923-2012) (***Les Origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)***) للنظر في الصلة بين المؤسّسة العلميّة ونظيرتها السياسيّة في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، كما تمثّلها جان قانياج.

ومن نتائج هذا البحث تأكيد الصلة بين هذين المتعاقدين حضاريّا: العالم والسائس رغم عدم مراهنة هذا المستعرب على المدخل العلميّ وتنوّع زوايا النظر فيه. وكذلك اقتضاء تلك الصلة لمعرفة مجالات التقاطع بين العلميّ والسياسيّ لبناء مشهد حضاريّ مفارق.

الكلمات المفتاحية: العلماء؛البايات؛تونس؛جان قانياج.

Abstract:

The era of the Beys was not without a partnership between scholars and authority. Tunisian scholars, in various stages of the history of Tunisia, especially in the era of the actual French occupation, held important positions, such as fatwas, the judiciary, and the ministry ... The relation between the two sides of the equation had its vicissitudes. This, presumably, was one of the most important entry points on which the occupant relied on to legitimize his security and civilizational presence. This research paper attempts to detect the presence of the link between Tunisian scholars and its Beys in one of the most important compilations of the Arabist Jean Ganiage (1923-2012) (***Les Origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)***(to consider the link between the scientific establishment and its political counterpart in modern and contemporary Tunisian history, as represented by Jean Ganiage.

Keywords: The Scholars; The Beys; Tunisia; Jean Ganiage.

1. المقدّمة

لئن تدرّج الحكم العثمانيّ في تونس من تكليف الباشوات إلى تنصيب البايات مرورا بتعيين الدايات، فإنّه، رغم هذا التنويع في التسمية والرتب، ظلّ حكما محكوما بتفاعل ذوي الرتب العلميّة الرفيعة في البلاد. إذ لم يخل عهد من عهود البايات من مشاركة ما، يندفع إليها العلماء بوعي، في الغالب، لتوجيه سياستهم وجهة معيّنة. ولقد تقلّد علماء مدينة تونس في مختلف مراحل تاريخها، ولاسيّما الحقبة التي سبقت الاحتلال الفرنسيّ الفعليّ حين بسط نظام "الحماية" عليها،

تقلّدوا مناصب مهمّة منها الكتابة والتعليم والقضاء والإفتاء والوزارة ... فكانت الصلة بينهم وأرباب السلطة تشهد حالة مدّ وجزر. يتّفقون حينا. فتُغلّب مصلحة أحد الشقّين أو مصلحة البلاد وعامّة الناس. ويختلفون حينا آخر. فتظهر الانشقاقات وتحشد الجهود من هنا وهناك لتوسيع الشقّة بينهما. وكان هذا، على وجه الافتراض المبدئيّ، من أهمّ المداخل التي عوّل عليها المحتلّ ليجد له موضع قدم وليشرّع لحضوره الأمنيّ والحضاريّ. تحاول ورقة البحث هذه اختبار هذه الفرضيّة من خلال دراسة حضور الصلة بين علماء مدينة تونس وبایاتها في أحد أهمّ مصنّفات المستعرب جان قانياج(Ganiage, Jean)(1923-2012) وهو أطروحته[1] التي تمثّل مرجعا أساسيّا في دراسة تاريخ تونس الحديث، مقدّمات الحقبة الاستعماريّة بصفة خاصّة، ومسألة التعويل على صلة العالم بالسائس، يومها، بصفة أخصّ.

ومن هنا تكون أهمّيّة البحث في العلاقة بين العلماء وأرباب السلطان زمن الاستحواذ الأجنبيّ. فقد تكون هذه العلاقة سببا مباشرا في التشريع له. ومن هنا يكون النظر في ما شهدته الصلة بين المؤسّسة العلميّة ونظيرتها السياسيّة من توافق أو تفارق، أمرا مهمّا في قراءة تلك الحقبة وصياغة الراهن. نشير إلى أنّ هذا النظر يكون من جهة ما تمثّله جان قانياج باعتباره واحدا من أهمّ المستعربين الذين انشغلوا بحقل معرفيّ يعنينا هو تاريخ تونس الحديث والمعاصر.

إشكاليّة البحث: إلى أيّ حدّ يمكن أن تكون الصلة بين علماء تونس وبایاتها ذات أثر فاعل في إرساء نظام الحماية الفرنسيّة بالبلاد التونسيّة وفق تمثّلات جان قانياج؟

تقوم خطّة البحث على مقدّمة فيها ضبط الموضوع وهدفه وإشكاليّته وخطّته، وخاتمة فيها خلاصات واستنتاجات وتوصيات، وبين المقدّمة والخاتمة ثلاثة عناصر: الأوّل: في بيان المفهوم والمرجع. والثاني: ثانيا: في صلة العلماء بالبايات وصلا وفصلا. والثالث: في صلة البايات بالعلماء وصلا وفصلا.

2. في بيان المفهوم والمرجع

إنّ النظر في المفهوم والمرجع مسألة منهجيّة يقتضيها عقد اتّفاقيّ بين باثّ ومتلقّ. وإنّ تقديم المفهوم على المرجع أوكد. ننظر في مفهومَيْ العالِم والتمثّل. ثمّ، وفي الإطار المرجعيّ، نقدّم الحدث وتحيّزه فالأثر وصاحبه.

1.2 المفهوم

أ- العالم

يبدو أنّ المنشغلين بمسألة الاصطلاح، في حدّ علمنا، لم يولوا اهتمامهم جهة مصطلحات بدت كمسلّمات لفرط التوهّم بمعرفتها. فالعالِم، مثلا، وبصفة بديهيّة، هو من امتلك العلم. وهنا يصبح حدّ العلم أمرا لازما. وقد تناول التهانوي في كشّافه العلم في ما ينيف عن الورقات العشر. وهذه شذرات ممّا قال: "العلم...في عرف العلماء يطلق على معان منها الإدراك مطلقا تصوّرا...العلم بمعنى اليقين...ما يتناول التصوّر واليقين مطلقا... العلم قد يقال لمطلق الإدراك... وأنواع الإدراك إحساس وتخيّل وتوهّم وتعقّل...تمثّل ماهيّة المدرَك في نفس المدرِك...معرفة المعلوم على ما هو به... وأمّا العالم فاسم صفة فعليّة وذلك علمه للأشياء"[2]. وليس من العسير تبيّن كثرة التعاريف وتضاربها أحيانا. فالعلم بين اليقينيّ وغير اليقينيّ لصلته بالإدراك. وهو موصول بالتعقّل والتخيّل. وبالاستتباع يصبح تعريف العالم مشوّشا يختلط فيه أمر العالم بالشيء علمَ يقين ومن دونه في ذلك. فهل ترتبط صفة العالم بالتخصّص أم بمطلق المعرفة؟

إنّ غياب مصطلح العالم أو تغييبه أحدث تذبذبا في الدلالة. وقد أسفر هذا الغياب عن غموض بيّن وخطير في تحديد هيئة العالم من جهة علمه ودرجته العلميّة ونشاطه في باب العلم ونتاجه وأثره في بناء الدولة. ومن ثمّ إمكان وقوع خلط في صفّ العلماء وضياع منزلتهم ولا سيّما عند الساسة.

ب- التمثّل

تسترشد هذه المحاولة في مقاربة الإشكاليّة بنظريّة التمثّلات[3] التي اكتسحت مختلف العلوم: علوم التربية وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها. لعلّ هذه النظريّة تسعفنا في اعتمادها آليّة نميّز بواسطتها بين الحدث، وكتب التاريخ تكتنز

بالإخبار عن هذه الحقبة من تاريخ تونس الحديث، وبين طريقة تمثّل قانياج له باعتباره فرنسيّا ومستعربا يرفع شعار العلميّة والموضوعيّة.

* ما المقصود بالتمثّل؟

جاء في **المعجم الوسيط** "تمثّل الشيءَ: تصوّر مثاله"[4]. يقابل مصطلح التمثل في اللسان الفرنسيّ لفظ (représentation). ومعناه حسب لتري(Littré) "وضع الشيء أمام العينين... استحضار الأشخاص أو الأشياء إلى الذاكرة أو الذهن"[5].

وقد أبانت السويسي عن طبيعة هذه التمثّلات وخاصّيّة التنظّم فيها. فقالت: "التمثّل هو مجموعة منظّمة من الإدراكات"[6]. وهذه الإدراكات هي عبارة عن "عناصر غنيّة بالمعلومات والمعارف والإديولوجيّات والمعتقدات والمعايير والقيم والمواقف والآراء والصور"[7]. ولمّا كانت التمثّلات موصولة بعمليّة الإدراك فإنّها لا يمكن أن تخلو من أهداف تتحقّق كلّما سعى المرء في اكتساب معرفة ما. فالدارس يقف إزاء "الحفاظ على الصورة الإيجابيّة لصورتنا ولانتماءاتنا، ممّا يؤكّد صلاحيّة هذه النظريّة لدراسة الهويّة..."[8]. ويحاول سرج موسكوفسي(S. Moscovoci)(1925-2014)، وهو أحد أعلام نظريّة التمثّلات المتأخّرين وصاحب كتابات معتمدة في هذا المجال العلميّ المتخصّص، أن يدقّق المسألة معتبرا التمثّلات تصوّرا مفقودا. فهي عنده: "إعادة إظهار الشيء للوعي مرّة ثانية رغم غيابه في المجال المادّيّ"[9]. ثمّ يمضي في تفصيل القول في خصائص ما أسماه بالتمثّلات الاجتماعيّة[10].

2.2 المرجع

أ- الحدث وتحيّزه

علينا بعد استحضار الحقبة المشار إليها في عنوان الكتاب المعتمد، ونعني العقدين السابقين لفرض الحماية على تونس، أن نشير إلى أنّ الحدث لا يمكن أن يتحيّز، بإطلاق، في الزمان ولا المكان. والدليل على ذلك، من نصّ قانياج نفسه، استحضاره لتواريخ سابقة للحدث من جهة علّيّته وأخرى لاحقة له باعتبار سببيّته. فهو نتاج ما تقدّم وسبب لما هو آت. وأمّا المكان فقد بدت الأحداث الواقعة في تونس مشدودة مكانيّا إلى ما جاورها، موصولة بضفّتي المتوسّط، لا بل ضاربة في اليابان وأمريكا أيضا.

لا شكّ أنّ ما سبق فرض الحماية على تونس من أحداث متشابكة كان له أثره في تمثّلات قانياج نفسه لتلك الأحداث. وها هنا ينبغي الوعي بالفارق بين السرديّة التاريخيّة والسرديّة الحضاريّة. فلئن كانت الأولى أسّها الحدث فإنّ الثانية قوامها تمثّل الحدث. نشير في محاولة البحث هذه إلى مستويات نظر ثلاثة، متواشجة وآخذ بعضها برقاب بعض، رغم تفرّد كلّ منها بحقبة زمنيّة لها خصائصها وخلفيّاتها:

* زمن الحدث: وقد أشّر قانياج على العقدين(1861-1881) كما تقدّم.
* زمن نشأة النصّ. وهو زمن تمثّل الحدث 1957.
* زمن قراءة تمثّل الحدث. وهو ما نحن فيه من نهاية العقد الثاني من الألفيّة الثانية.

إنّ الفاصل الزمنيّ بين هذه المستويات يقارب ثلاثة أرباع القرن. ولعلّ هذه المسافة من شأنها أن تسعف الباحث فهما واستنتاجا لفرضيّات كثيرة من نوع: الركود العلميّ يومها، أو غلبة العلوم الدينيّة، أو اعتبار الثورة معيارا للصلة بين العلماء والأهالي والسلطة. فلا تثار في حال السلام مسألة القطيعة وإنّما تصنّف العلاقات إلى معاضدة ومعارضة زمن الثورات حين تعيش الأطراف الثلاثة، العلماء والأهالي والسلطة، تجاذبا قويّا وتشتدّ وضعيّات الاحتكاك بينها.

ب- الأثر وصاحبه

عنوان الأثر المعتمد مثلما تقدّم (***Les Origines du Protectorat français en Tunisie(1861-1881)***). وقد عُرّب في ثلاث نسخ تونسيّة، في ما علمنا، باختلافات في اللفظ وفي التركيب[11]. ويرى شاطر، في مقدّمته للكتاب، أنّ مصنّف

قانياج هذا "كتاب مرجعيّ"[12]. ويذهب إمريت إلى "إنّه من الكتب التي توفّر أكثر ممّا يشير إليه عنوانها"[13]، مؤكّدا النشر التونسيّ للكتاب، ممّا يضاعف قيمته. يقول: "نشر معهد الدراسات العليا بتونس... 1959". واختزل محتواه الذي تضمّن ملامح ضعف البلاد التونسيّة وسقوطها في تلك الحقبة التاريخيّة. فقال: "إنّ انحطاط الإيالة قد وصف بدقّة مذهلة"[14].

لم يراهن قانياج على المدخل العلميّ المتمثّل في الصلة بين العلماء والسلطة. وإنّما راهن على المدخل الاقتصاديّ. فما الذي دفع بنا إلى استدعائه في مبحث الصلة بين علماء تونس وباياتها وإقحامه فيه؟ إنّه نصّه وخطابه وخطّته. فأمّا النصّ فقد شفّ عن حضور خفيّ للعلماء وإن بغير صفة. ويأتي خطابه، تباعا، مبرهنا على ما ذهبنا إليه من حضور المسألة في مصنّفه المعتمد. فالرجل يتجنّب تسمية العلماء بصفة العلم، والاستثناء في ذلك قليل، وإنّما يذكرهم في الغالب تحت مسمّى الشيخ أو المفتي أو القاضي إفرادا وجمعا، تنكيرا وتعريفا، دون أن يكون السياق متعلّقا بالوظيفة. وأمّا خطّته المتجلّية من خلال بنية الكتاب فقد دلّت هي الأخرى على حضور العلماء حضورا يتخلّل كلّ حدث رام الكاتب سرده.

وأمّا تعريف جان قانياج وظيفيّا فهو مؤرّخ فرنسيّ معاصر شغل وظائف في التدريس والتأطير والبحث والتدوين بفرنسا وتونس. ساهم في تأسيس الجامعة التونسيّة[15]. له بحوث وكتب ومقالات في مجال اختصاصه (قضايا الاستعمار والنزاعات الدوليّة)[16].

3. في صلة العلماء بالبايات

وسم النيفر مقالا له وسما استفهاميّا: الشيخ السلاّمي: آخر العمائم؟ ثمّ طرح سؤالا مزدوجا: "علاقة السياسيّ بالدينيّ أو صلة القصر بالعمامة؟"[17]. وهو بذلك يحفر في عمق المسألة التي تعنينا هنا. إنّ استعارة هذا السؤال مع اعتبار الدينيّ قرينا للعلميّ في الحقبة التي ندرس، من شأنها أن تساعد في تبيّن أثر القصر في العمامة ودورها هي في توجيهه، كما لو كانت العمامة تردّ القصر المتعاليَ إلى واقع الحال بدورانها حوله. فأيّ أشكال لصلة للعالم صاحب العمامة بالبايات عشّاق القصور؟

اخترنا النظر في هذه الصلة من الاتّجاهين المتقابلين في محاولة لتبيّن مختلف أنواع العلاقات التي كانت تربط هذين الطرفين. نتناول هاهنا الاتّجاه الأوّل المتمثّل في صلة العلماء بالبايات. وإنّما تقديم هذا الاتّجاه على مقابله مبرّره صفة الثبات الغالبة على العلماء بخلاف أحوال التقلّب عند ذوي السلطان. وأمّا طريقة النظر فتتوخّى تقصّي الوصل من جهة أشكاله والنموذج المرشّح له، وفق ما تمثّله جان قانياج، لتمثيل صلة الوصل تلك. وبعد ذلك يكون تقصّي ملامح الفصل في الصلة: الأشكال والنموذج.

1.3 الوصل في صلة العلماء بالبايات

أ- أشكاله: في صلة العلماء الموصولين بالبايات تتعدّد الأشكال. ننتخب منها ما بدا لنا أوكد حضورا وأهمّ درسا. فمن الوصل تلك كونهم أعوانا لأرباب السلطة على المتمرّدين. ومنها خضوعهم لهم. ومنها مساهماتهم الداخليّة والخارجيّة لإضفاء الشرعيّة على حكم البايات.

*** العلماء عون الحكومة على المتمرّدين:** يرى جان قانياج أنّ العلماء كانت لهم علاقات تربطهم بالبايات كما لو كانوا يقدّمون أنفسهم أعوانا يقفون ضدّ المتمرّدين ويصدّون الثائرين. إنّ هذا النوع من الصلات يبدو شديد الخطورة. فالعلماء الذين يمثّلون، في أصل الأشياء، مصدرا معرفيّا وملجأ روحيّا، يصبحون أشدّ خطرا ممّن سواهم حين يتحوّلون حُفّاظ أمن وأعوان استخبار. فكيف للأهالي أن يستأنسوا بهم وهم في تلك الصورة. لئن بدا العالم مستفيدا في الظاهر

من تلك الصلة بالسلطة، فإنّه لا محالة يكون قد خسر ما كان يمكن أن يكون عليه، لدى العامّة، من هيئة العالم منزلة ومهابة. يقول قانياج في تعاون العلماء، أو من يمثّلون العلم، مع السلط: "... يمكن للحكومة الاعتماد عليهم للتعاون في الحفاظ على النظام في القبائل وتسليم المحرّضين البائسين عند الحاجة"[18].

* **الخضوع للباي:** تقدّمت الإشارة إلى ضبابيّة مصطلح العالم وغموضه إمكان إطلاق صفة العالم على كلّ من امتلك معرفة ما فاق بها عامّة الناس. وقد عدّ شيوخ الزوايا علماء يرجع إليهم في ما يمتلكون من معارف ومدارك. وتعدّ مسألة خضوع أهل الطرق والزوايا للسلطة عموما، بما في ذلك سلطة الاحتلال، عند المستعربين خاصّة، أمرا ثابتا أكّده الكثيرون[19]. وقد سلك قانياج المسلك ذاته حين أجرى مماثلة، في شأن خضوع العالم لصاحب السلطة، بين سلوك شيخ العزّوزيّة بالجنوب التونسيّ الغربيّ ونظيره شيخ التيجانيّة بصحراء الجزائر. يقول: "كان شيخ الزاوية الرحمانية في نفطة، مصطفى بن عزوز[20]، خاضعًا للحكومة البايويّة مثل الشيخ تيجاني من تيماسين"[21].

***المساهمة الداخليّة والخارجيّة لإضفاء الشرعيّة على حكم الباي:** من أشكال الوصل التي كانت للعلماء تجاه ساستهم تأمين مساندتهم لهم، قصدوا ذلك أم لم يقصدوا. والأمثلة في ذلك كثيرة. ففي الداخل كانت برامج الإصلاح التي نظّر لها خير الدين باشا وفعّلها ذات دور بيّن في تأكيد صلاح حكم البايات يومها. فهذا الوزير لم يكن ينظّر للإصلاح من خارج دائرة السلطة البايويّة. فهو تحت رعايتها. ولو أنّها كان يعلم استحالة قبول أرباب السلطة بما ينجزه من مشاريع إصلاحيّة لكان أعرض عنها أو استبدل الفضاء الذي يتحرّك فيه. إنّ جملة الإصلاحات التي تحسب لخير الدين، تحسب في حقيقة الأمر لمن سمحوا له بإخراجها من طيّ الكمون إلى عالم التطبيق والإجراء. ولذلك لمّا انقطع الوصل بين العالم المصلح وبين السائس دُعي إلى مهامّ أخرى خارج البلاد. فإذا سرّحنا النظر في جملة التحرّكات التي كانت لخير الدين باشا في بلدان من أوربا، أدركنا أنّ الرجل إنّما كان مرسلا لقضاء شؤون بايويّة، ولحلّ معظلات تخصّ سياسة الباي. ولا يمكن أن نتصوّر نهوض خير الدين بتلك المساهمات خارج الشرعيّة أو أن يكون قبِلها مرغما. فمن سكنت فلسفة الإصلاح فكره لا يدفع إليه دفعا ولا يجبر عليه جبرا.

كذا شأن ابن أبي الضياف في الكتابة. فقد ساهم في إضفاء الشرعيّة على حكم الباي بكلّ ما خطّه قلمه إعلاما وتعليما، تحليلا وتعليلا. كلّ ذلك من شأنه أن يضاعف شرعيّة حكم الباي ويثبّتها. وقد تنبّه قانياج إلى ذلك ونبّه إليه. فقد رأى أنّ وقوف هذين العالمين قد أطال حكم البايات.

***التزام الصمت عند معاينة حالات فساد الحكم:** وهو شكل من أشكال الوصل التي تعدّ الأسوأ والأخطر في تسيير شؤون البلاد. فحالات الفساد التي صاحبت حكم البايات كثيرة من حيث العدد بيّنة ظاهرة من حيث المعاينة. خذ لك على سبيل المثال الاستحواذ على الوظائف وبيعها والبقاء فيها مددا طويلة لا بل الجمع بين أكثر من وظيفة مع إسناد المناصب للمقرّبين والمماليك. لقد بقي مصطفى خزندار، وهو مملوك أحمد باي في الوزارة الماليّة مهيمنا على خزينة المال مدّة ستّ وثلاثين سنة(1837-1873) رغم تبدّل في البايات، كما لو كانت تونس قد خلت من علماء يجيدون إدارة الشأن الماليّ. ولا أحد، والبلاد تغرق في مديونيّة مجحفة، أبدى اعتراضا أو انتقادا أو رفضا، بما في ذلك كاتب الباي الأوّل ابن أبي الضياف. وهو مرشّح أكثر من غيره ليكشف ملفّات الفساد وقد عاينها معاينة ولم تصله رواية.

لم يسجّل قانياج، وهذا تمثّله من دراسة الحدث، حالة وعي للمشهد السياسيّ يومها رغم أنّ "كلّ الوظائف كانت محتكرة من قبل المماليك وعوائل باردو"[22]. ويمكن أن نستثني من ذلك موضعا واحدا ذكره قانياج جاء فيه: "يعود ابن أبي الضياف، مرارا، في مصنّفه إلى النفقات التي تسبّبت فيها استعادة القناة. وهي برأيه نفقات يمكن أن تكون سببا رئيسيّا في صعوبات الدولة الماليّة"[23]. نحتفظ ها هنا من هذا الشاهد بأمرين: الأوّل يتّصل بتكرار ابن أبي الضياف الموضوع. إذ "يعود ابن أبي الضياف، مرارا، في مصنّفه إلى النفقات". فهو من هذه الجهة متفطّن للفساد الماليّ. لكنّ تمثّل قانياج لوعي

ابن أبي الضياف يقصر عن بلوغ الحقيقة أو هو يقصر عن إبلاغها. والأمر الثاني يرتبط بتعبيره عن الإمكان بدل الوجوب واليقين. وعبارته في ذلك: "وهي برأيه نفقات يمكن أن تكون سببا رئيسيّا في صعوبات الدولة الماليّة". وما يؤكّد ما ذهبنا إليه من وقوف قانياج دون الغوص في أبعادها، في تمثّل بدا لنا سطحيّا، ما يؤكّد ذلك هو تمكّن ابن أبي الضياف من معرفة حقيقة القنصل الفرنسيّ ليون روش الانتهازيّة. ألم يقل قانياج: "... مع تفطّنه إلى أطماع القنصل الفرنسيّ ليون روش في ذلك المشروع"[24].

ب- نموذجه: محمد العزيز بوعتّور(1907/1825)

وهو وفق تمثّل قانياج نموذج وصل سالب. قال فيه: "كان مدير الماليّة محمّد العزيز بوعتّور صنيعة الوزير الأكبر"[25].. و"صنيعة الوزير الأكبر" عبارة تختزل، من جهة كلّ ألوان الفساد الماليّ والإداريّ التي أتاها الوزير خزندار طيلة قيامه على السلطة ستّا وثلاثين سنة، ومن جهة ثانية تشفّ عن انخراط محمّد العزيز بوعتّور في مسار خزندار وعدم توجيه أدنى اعتراض عليه. وهذا الموقف يكشف عن شخصيّة بوعتّور الوصوليّة، وفق تمثّلات قانياج. يقول معدّدا بعض المناصب التي شغلها الشيخ بوعتّور، أو الجنرال كما يحلو له أن يسمه: "الجنرال محمّد العزيز بوعتّور، كاتب محمّد الصادق باي. أصبح مديرا للماليّة في 1860. ثمّ سمّي وزير الماليّة في 1866 ثمّ وزير الداخليّة في أوت 1878... وأصبح الوزير الأكبر على مدى 24 سنة إلى حين وفاته... 1907"[26].

ولا عجب أن يصرف قانياج اهتمامه الخاصّ جهة ضبط التواريخ. فهو مؤرّخ بالأساس. غير أنّه لا ينبغي أن يغيب عن الناظر في خطابه أنّه لا يتّجه وجهة التحليل والنقد واستخلاص بعض الفوائد كما هو منوط بعهدة المؤرّخين. والعجب كلّ العجب ألاّ نقف على أيّة إشارة من لدن قانياج تبين عن مساهمات بوعتّور في مختلف الإنجازات التي تمّت في عهده ولا سيّما تلك التي نسبت إلى خير الدين في مجال الإدارة والتعليم والقضاء وغيرها. لم نقف على أيّ إشارة تفيد معاضدة الشيخ بوعتّور لخير الدين في تنظيم المحاكم الشرعيّة وسنّ قانون العدل وإصلاح التعليم بالجامع الأعظم ومشاركته في تأسيس المدرسة الصادقيّة وإنشاء جمعيّة الأوقاف. لقد حرص قانياج على تقديم بوعتّور في صورة انتهازيّة مثقلة بالوسم السلبيّ، رغم أنّ كتب التراجم تعجّ بفضائله العلميّة[27].

2.3 الفصل في صلة العلماء بالبايات

أ- أشكاله: تمثّل أشكال الفصل في العلاقات بين أهل العلم وذوي السلطان ألوانا من القطيعة يسلكها العلماء كلّما دعاهم داعي التعبير عن الموقف أو دفعهم الوعي بوجوب استعادة منزلتهم المهدّدة. من ذلك الاستسلام والاستياء والغضب على الباي بسبب تجريدهم من بعض المهامّ أو رفضهم إصلاحات الوزير أو حتّى الانسحاب الجماعيّ من جلسات النظر في عهد الأمان أو تقويض دعائم السلطة بالوقوف مع الثورة أو التواطؤ مع رموز الاحتلال.

*** الاستسلام المشروط:** لئن كان إعلان رضوخ العالم لمشيئة السائس له ما يبرّره كامتلاك السائس السلطة في فرض أوامره أو تلويحه بالتهديد وما شاكله من أنواع القمع، فإنّ فرض العالم على السائس استسلاما مشروطا يظلّ قبلا لأكثر من تأويل. ومهما تعدّدت تأويلات المؤوّلين فإنّ هيئة العالم تظلّ منقوصة إن لم يكن قادرا على إملاء شروطه حيث تجب الشروط. وهذا بعض ما قال قانياج في هذا الشكل من أشكال الفصل: "أعلن، في 26 جويلية 1864، أربعمائة من الشيوخ والوجهاء استسلامهم باسم أربع عشرة قبيلة من الشمال الغربيّ، وفقًا لشروط تقليص المجبى إلى عشرة قروش، وتخفيض العشر بمقدار النصف"[28]. والموقف كما هو بيّن من مآلات الانتفاضة الجبائيّة التي عرفتها تونس خلال حكم البايات وزمن إفلاسه. بل إنّ"كلّ قرى الساحل تقريبا، أعلنت الواحدة تلو الأخرى، تقليدا لمساكن، استسلامها للباي بإرسال مشائخهم ووجهائهم إلى المعسكر تتقدّمهم أعلام المنطقة"[29].

***الاستياء:** قد يثمر سلوك الباي وتصرّفه في غير حكمة عداء مع فئة العلماء. فيكون بذلك قد فتح على نفسه باب خصم لا ينبغي أن يخاصم ففي خصامه خسران رأي وتأييد. إنّ تجريد العالم ممّا له من سلطة لا يمكن أن يسفر عن غير الرفض وعدم الرضا والاستياء. وليس على الباي التغافل عن مآلات الأمور. فقد كشفت الأحداث اللاحقة لعمليّة تجريد العلماء من نفوذهم وضعيّات تململ في صفوف العامّة سرعان ما انتشرت وتراكمت فولّدت ما يعرف بثورة باي الشعب. وهو لقب أطلق على عليّ بن غذاهم[30]. لقد "كان هناك، منذ 1862، في داخل البلاد استياء كامن ولكنّه واضح المعالم، يرعاه الشيوخ والوجهاء الذين أغضبهم تجريدهم جزءا من سلطاتهم"[31].

***الغضب على الباي بسبب تجريدهم من بعض المهامّ:** لعب المماليك دورا بل أدوارا خطيرة في دواليب الحكم بالبلاد التونسيّة إبّان حكم البايات. فهم أنفسهم صنيعة أيدي البايات الذين استأمنوهم على البلاد في أحلك حالاتها، دون اعتبار لعلم أو خبرة. ليس الباي مضطرّا للاستشارة إذا ما رام منح مملوك ما منصبا ما، أيّا كان القائمون عليه، وأيّا كانت خطورة هذا المنصب ومهما كانت قدرات المملوك ومعارفه ضعيفة متدنّية. لقد "كان القيّاد والخلفاوات والقضاة قد غضبوا بشدّة من الإصلاحات القضائيّة التي نقلت إلى محاكم المماليك أهمّ مهامّهم السابقة"[32]. رأى قانياج أنّ هذه الإصلاحات القضائيّة لم تثمر غير كوارث ثلاث، جرّتها على البلاد. وهي في علاقة علّة واستتباع. أولاها الاستحواذ والاحتكار. وثانيتها إتلاف أموال الخزينة. وثالثتها إثقال كواهل الناس بالضرائب. يقول قانياج في من جرّدوا من وظائفهم من القيّاد والخلفاوات ولا سيّما القضاة أهل العلم المختصّ وأهل النفوذ المعترف به لدى الخاصّة والعامّة: "وكانوا غيورين من ثروة الامتيازات المستهجنة. وكانوا يندّدون بسياستهم المحتكرة للوظائف الكبيرة وإهدار الماليّة وثقل الضرائب"[33].

***رفض إصلاحات الوزير:** يميّز قانياج في صفوف العلماء بين فئتين: فئة يسمها بالمحافظين وأخرى لا يطلق عليها اسما لكونها معلومة بالمقابلة مع المحافظين. ويؤكّد أنّ فئة المحافظين تتصدّى لكلّ إصلاح وترفض تغيير ملامح الوضع القائم سواء في ذلك مجال الإدارة أو التعليم. ولا يفوّت قانياج حشر الشيخ بيرم التونسيّ كلّما ألفى مسلكا خاطئا أو موقفا قابلا للنقد والتشنيع. يقول: "كان محمّد بيرم شيخ الإسلام... على رأس حزب محافظ يرفض الإصلاحات التي رعاها الوزير"[34]. كذا تمثّل قانياج فئة المحافظين وعلى رأسهم الشيخ بيرم الخامس. لم يجانب قانياج الصواب في ما ذهب إليه كلّه وإنّما ينبغي أن يؤاخذ في تعميمه وعدم التنويع في التمثيل.

***الانسحاب الجماعيّ من جلسات النظر في عهد الأمان:** والمثال في ذلك السلوك الذي أتاه العلماء عندما استجابة الباي لمطالب القوى العظمى في شأن إحداث إصلاحات عهد الأمان. تكوّنت يومها لجنة برئاسة الوزير الأكبر مصطفى خزندار. وكانت تضمّ عشرة أعضاء "مصطفى باش آغا، وزير الحرب وخير الدين وزير البحريّة وإسماعيل صاحب الطابع حافظ الأختام والجنرال محمّد أمير الأعراض وأحمد بن ضياف كاتب الحكومة ومفتي تونس الأربعة"[35]. وهؤلاء المفتون الأربعة لم يكونوا راضين على سلوك الباي ذاك رغم اجتهاده في دعوتهم قصد تشريكهم في وضع عهد الأمان. ثمّ إنّهم "لم يتأخّروا في إعفاء أنفسهم من حضور الجلسات"[36]. الملاحظ هنا تفصيل في وظائف الوزراء والوجهاء يقابله تغييب تامّ لهويّة المفتين الأربعة. وقد صرّح بمصدره في ذلك[37] دون أن يكون قد أفاد، عن وعي أو غير وعي، من المعلومات والإيضاحات المضمّنة فيه.

***تقويض دعائم السلطة بالوقوف مع الثورة:** إنّ هذا الشكل من أشكال الفصل التي تجلّت في مواقف العلماء من البايات يعدّ خطير. وليس أخطر منه إلاّ الوقوف مع المحتلّ والتواطؤ معه ضدّ حكم البايات. لقد تفاعل "الشيوخ والوجهاء" مع الثورة التي قادها علي بن غذاهم. فأدركت حكومة الباي ميلان الكفّة ضدّها. فالعلماء الذين اتّخذتهم في أسوإ الحالات وسائل ضغط على العامّة مالوا ضدّها وانتصروا للثورة. يقول قانياج: "كان الشيوخ والوجهاء، منذ بداية

أفريل 1864، مع الثورة، بطيب خاطر أو رغما عنهم. ومع ذلك لم يعطوا هم أنفسهم الإشارة. وبقيت الحكومة العاجزة وفيّة لأسلوبها في التسويف: كان خزندار يعلن دوريّا حالات استسلام وينشر في الجريدة الرسميّة[38] الأخبار الأكثر طمأنة"[39].

***التواطؤ مع رموز الاحتلال:** وليس أخطر، في المخيال الجمعيّ عند الشعوب المضطهدة، من موالاة المحتلّ، ذلك أنّ مشقّة المقاومة تصبح مضاعفة. هذا بالنسبة إلى من رام الانخراط في مقاومة الظلم والاستبداد من أهل العلم. وهاهنا اقتطع قانياج مثالا، لا شكّ من أمثلة كثيرة تعجّ بها مراسلات الاحتلال، في تواطؤ بعض التونسيّين من العلماء وذوي السلطان مع رموز الاحتلال. يقول قانياج واصفا طبيعة العلاقة التي كانت بين بعض الأجانب المكلّفين بمهامّ في تونس يومها وبعض من أصيلي البلاد الحاملين لقب شيخ: "كان مطّاي(Mattei) مثل زميليه الإنقليزيّين في سوسة وصفاقس ستيفنس(Stevens) وكرلوطن(Carleton) في علاقات أعمال مع شيوخ الكثير من القبائل الداخليّة ووجهائها. وكان قد أفاد منهم ليرسل هو نفسه تفسيرات ونصائح لزعماء الثورة كما تدلّ على ذلك رسالة 22 أفريل التي كان قد وجّهها إلى عشرة شيوخ من ماجر والفراشيش"[40].

ب- نموذجه: خير الدين باشا التونسيّ(1822-1890).

صرّح شاطر في مقدّمته لكتاب قانياج بالأساس الذي بنى عليه خير الدين إصلاحه الإداريّ. فقال:"يبرز جان قانياج حكومة خير الدين وخاصّة أخلاقيّات الإدارة الحكوميّة"[41]. لقد توجّه خير الدين رأسا إلى التأسيس: ف"إذا اعتبرنا تسابقَ الأمم في ميادين التمدّن وتحزّبَ عزائمهم على فعل ما هو أعودُ نفعا وأعونُ لا يتهيأ لنا أن نميّز ما يليق بنا على قاعدة محكمة البناء إلاّ بمعرفة أحوال من حفّ بنا وحلّ بقربنا"[42]. ويبدو أنّ الفكر الإصلاحيّ النافذ الذي اختبره تنظيرا وإجراء قد دفع بقانياج إلى أن يخصّ الإخبار عن حكومته بالفصل الرابع، وعنوانه: حكومة خير الدين(أكتوبر 1873-جويلية1877).

***دوره الإصلاحيّ:** وقد اختزل قانياج هذا الدور في قوله: "رأينا الانتهاكات التي أفسدت إدارة خزندار تختفي بفضل خير الدين"[43]. أمّا تفصيل القول في هذه الإصلاحات فها هو:

- **الإصلاحات الداخليّة:** الإصلاح الإداريّ والتظيم الماليّ: أقامه خير الدين على بعض حالات فصل في صفوف القيّاد أصحاب التجاوزات "إنشاء هيئة الحبس وتنظيمها وجعل عليها محمّد بن مصطفى بيرم الخامس مدير الجامع الأعظم وهو كذلك مدير مطبعة الحكومة والجريدة الرسميّة في ماي 1875"[44]. ومن ذلك أيضا أنّه خلف صهره مصطفى خزندار الذي كان تسبّب في سقوطه، "وأصبح وزيرا أكبر..."[45]. يعلّق قانياج على هذا الإجراء الإداريّ الخطير الذي سيغيّر بعضا من ملامح الحكومة. فيقول: " كانت إدارته مفيدة"[46]، هذا في الداخل. أمّا ما كان منه من إصلاح في الخارج، فقد تمّ تكليفه بمتابعة قضيّة بن عيّاد. وقد آل بذلك إلى التخلّي عن السلطة الداخليّة. يقول قانياج مخبرا عن البعثات التي كلّف بها خير الدين معدّدا البلدان الأوروبيّة التي زارها مبيّنا بعض نتائج تلك التحرّكات في الخارج، أي التخلّي عن اثنين من المناصب العليا في البلاد يومها: "في ديسمبر 1862... كان على خير الدين التخلّي عن وزارة البحريّة ورئاسة المجلس الأعلى. وبقي بعيدا عن الشؤون مدّة تسع سنوات لا يقبل سوى مختلف البعثات التي جعلته يسافر إلى ألمانيا وأنقلترا وإيطاليا وفرنسا خاصّة..." [47].

- **الإصلاح التعليميّ:** رأى قانياج أنّ التعليم في مشروع خير الدين الإصلاحيّ مثّل المركز. وهو بذلك لم يجانب الصواب لأمرين: الأوّل يمثّله منطوق نصّ خير الدين نفسه في مصنّفه أقوم المسالك. والثاني يمثّله منطوق الواقع. فليس أولى من التعليم تقديما في مجالات الإصلاح. فكلّ مجال مرتهن، منطقيّا، بمجال التعليم. يقول: "كان التعليم مدار اهتمام

الوزير الأكبر كلّه. كان خير الدين في كلّ مكان تقريبا: في تونس وفي مدن الساحل يشجّع على تأهيل المدارس وتوسعتها. وكان تعليم الجامع الأعظم قد نُظّم بعنايته"[48].

***تقديم مشروع إصلاح العدالة للقناصل:** يتعلّق هذا الشأن الإصلاحيّ بحلّ ما تخلّد في ذمّة تونس وبلدان أوروبا ممثّلة في رعاياها بتونس من قضايا ظلّت إلى حينها دون حلول. لذلك تمّ "إنشاء محاكم مدنيّة مختلطة مكلّفة بالحكم في كلّ المسائل المعلّقة بين الأوروبيّين والتونسيّين"[49].

* **تفعيل مشروع بناء ميناء قرطاج:** يعدّ هذا الإنجاز في عين قانياج إنجازا حضاريّا بخلاف ما كان يظنّه نظراؤه في حكومة الباي. لقد "كانت مسألة الميناء قيد الدراسة لفترة طويلة. عام 1874، كان أُسكار غاي(Oscar Gay) قد قدم، فعلا، ليقدّم لخير الدين مشروع ميناء في قرطاج"[50].

* **المساهمة في تشكيل إطارات حركة "الشباب التونسيّ":** لقد تجاوزت تمثّلات قانياج لخصال خير الدين العلميّة وجهوده الإصلاحيّة ما يمكن أن نسمّيه بالدور النضاليّ. وذلك من خلال قيادته لحركة الشباب التونسيّ "هذه، التي ستحاول، بعد عشر سنوات، تجديد الحاضرة، تحت قيادة الجنرال خير الدين البارعة"[51].

* **قضيّة هنشير النفيضة**[52]: وأهمّ من الحدث تداعياته. إذ هبّ الوجهاء لتوقيع وثيقة شراء للحيلولة دون بيع الهنشير للأجنبيّ. و"الذين وقّعوا الرسالة الجماعيّة المتعلّقة بعرض شراء هنشير النفيضة[53]، من وجهاء تونس، بالإضافة إلى عدد من الجنرالات منهم العربي زرّوق وصادق بحري باش حامبة... "الشيخ الورتاني..."[54]. أخرج قانياج الشيخ الورتاني في حال وصل مع الباي وزمرته وانتهازيّة واضحة يقف العالم فيها ضدّ نظيره في العلم والإصلاح[55].

كان قانياج حريصا حرصا نستخلصه من خطابه، على إخراج خير الدين قي صورة موجبة. فهو يثمّن جهوده. فحكومته، مثلما تقدّم، مفيدة وقيادته بارعة. ويضاعف تثمينه فيقول: "إنّ جهود وزير نزيه، خير الدين، جديرة بأن تمنح البلاد بضع سنوات من الحكم الجيّد"[56]. ولا يرى له نظيرا في علماء تونس ومصلحيها السياسيّين. فهو عنده: "رجل الدولة التونسيّ الأكفأ في وقته"[57].

4. في صلة البايات بالعلماء

هذا الاتّجاه الثاني في محاولة النظر في طبيعة الصلة بين البايات والعلماء من حيث أشكالها ونموذجها الممثّل لها، فصلا وفصلا. ولئن اهتمّ القسم الثاني بصلة العلماء بالبايات أي الصلة من جهة العلماء باتّجاه البايات، فإنّ القسم يسعى إلى اختبار الصلة بالاتجاه المقابل. وما ذاك إلاّ رغبة منّا في تقصّي أشكال هذه العلاقات علّنا نظفر ببعض الحقائق التي قد تكون تمثّلات قانياج، في قراءته لتلك الحقبة، قد وقفت عليها. فأوقفتنا، من ثمّ، على بعض أسرارها.

1.4 الوصل في صلة البايات بالعلماء

أ- أشكاله: وفيه تنجلي آليّات السلطة في جذب العلماء. ومنها إظهار الاهتمام بمؤسّسات العلم والطباعة والصحافة وتكليف العلماء بوظائف دقيقة واستشارتهم. ومنها المرافقة في الرحلة. ومنها كذلك المصاهرة.

* **إظهار الاهتمام بمؤسّسات العلم والطباعة والصحافة:** يسلك أرباب السلطة، عادة، وحين يسعون إلى استقطاب فئة ما، لا سيّما إذا كانت ذات ثقل في موازين القوى الداخليّة والخارجيّة، مسلكا يقوم على الإغراء. وليس أغرى لأهل العلم، إن كانوا الفئة المستقطبة، من تدشين صروح العلم ومتعلّقاتها من دوريّات ودور طباعة. وهذا تماما ما أشّر عليه

قانياج حين تنبّه إلى انخراط البايات في مشاريع الإصلاح التعليميّة في الجامع الأعظم خاصّة الاهتمام بالمدرستين الحربيّة والصادقيّة. وقد كان فعلا محمّد بيرم الخامس "مدير مطبعة الحكومة والجريدة الرسميّة في ماي 1875"[58]. ولعلّ المثال الأوضح والأدقّ والأشمل لتمثيل هذا الشكل من أشكال الوصل التي انتهجها البايات في استقطاب العلماء هو خير الدين الذي تجاوز إنشاء المؤسّسة التعليميّة إلى بناء رؤية استشرافيّة لمستقبل خرّيجيها. يقول قانياج: "يرمي خير الدين إلى حفظ وظائف الإدارة لخرّيجي المدرسة"[59]. ويقصد الصادقيّة. ثمّ يضيف مُبِينًا عن أهداف المدرسة الصادقيّة ومفصّلا القول في آفاقها العلميّة ومنتهيا إلى أبعاد فكره الحضاريّة في إلغاء الميز بين الطبقات والفئات: "ستستمرّ أفضل العناصر في متابعة التعليم العالي في أوروبا. وبهذا ينبغي أن تكون المدرسة الصادقيّة حاضنة موظّفين... كان يرتّب، وهو المنفتح على جميع المسلمين، الانصهار بين الطبقات الاجتماعيّة المنفصلة إلى ذلك الحين، ومماليك القصر وبرجوازية المدن الكبرى"[60]. ومن هنا كان التمكّن من توظيف المؤسّسات الدينيّة والتعليميّة وهيكلتها في تعبئة العلماء.

***تكليف العلماء بوظائف دقيقة:** مناصب إداريّة نافذة: إدارة الماليّة وقيادة المحاسبة والكتابة الأولى والقضاء... وهذا شاهد في ذلك: "كان مدير الماليّة محمّد العزيز بوعتّور... وقائد المحاسبة الشيخ محمّد بوخريص... والشيخ أحمد بن أبي الضياف بقي محتفظا بمنصب كاتب الباي الأوّل"[61]. يثير قانياج في مناسبات متعدّدة مسألة توظيف البايات العلماء في وظائف مؤثّرة في الشأن السياسيّ. وهو بذلك يقدّم رؤيته في الهيئة الحاكمة من جهة قراراتها واختياراتها ومن جهة مآلات ذلك في تدهور أوضاع البلاد. فهل يكون تكليف العلماء بتلك المناصب عشوائيّا اعتباطيّا؟

ولننتخب مثالا في سيطرة العلماء على القضاء. ساق قانياج هذا في مدار حديثه عن حادثة صمويل سفاز. وهو بتعبير قانياج " يهوديّ أهليّ كان مواطنا تونسيّا"[62]. " إنّه بهذه الصفة عُرّف أمام الشرع"[63]. ثمّ يعرّف بهذه المحكمة مؤكّدا صرامتها وشمولها لمختلف مجالات الحياة وهيمنتها على القضاء مقابل غياب شبه كلّيّ لنفوذ الباي الذي لم يستبق لنفسه سوى النظر في بعض المسائل العابرة: "محكمة دينيّة كانت تجمع المفتين والقضاة من المذهبين الحنفيّ والمالكيّ تحت رئاسة شيخ الإسلام محمّد بيرم صهر الباي محمّد. الشرع مكلّف بمعرفة كلّ المسائل المتعلّقة بالدين والأحوال الشخصيّة وأملاك الحبس. عدالة الباي وأعوانه لا تُعنى بغير المسائل الوقتيّة جدّا"[64].

* **استشارتهم:** انتقد قانياج وجهة نظر مستشاري الباي، ولا ريب أنّ منهم العلماء أمثال خير الدين وابن أبي الضياف وغيرهما، في رؤيتهم التي تحرص على إبقاء الروابط مع البلاد المجاورة. فقد كانوا، والعبارة لقانياج: "يعرفون ضعف البلاد العسكريّ ويرون، قبل كلّ شيء، ألاّ يعزلوا أيّا من أجوارهم"[65]. أمّا تمثّله هو للمسألة فيقوم على وجوب الاستئناس، في مجال التحرّر، بالنماذج الأوربيّة. وذلك من خلال التعويل على السند الخارجيّ. يقول: " إنّهم لم يكونوا قد فكّروا بعد في مشروع تحييد الحاضرة الذي يجعل من تونس بلجيكا أخرى استقلالها يمكن أن يكون مضمونا من القوى العظمى"[66].

***المرافقة في الرحلة:** لا شكّ أنّ الرحلة في عُرف العلماء أمر معهود مألوف، منذ أقدم الأزمان. وقد تكون عند الساسة شأنا قليلا نادرا. لكنّ سفر السائس مصحوبا ببعض حاشيته وخاصّته من العلماء أمر ذو بال. لا ريب أنّ من يجعل العلماء في رفقته من ذوي السلطان له مطالب وانتظارات، ليس أقلّها إجلال موكبه بهم والاستئناس بملاحظاتهم وآرائهم وشهادتهم على حضارة غيرهم ومن ثمّ تدوين المشاهدات وإجراء المقارنات. كان المشير أحمد باي[67] قد استجاب لدعوة تلقّاها من ملك فرنسا لوي فليب الأوّل(Louis-Philippe 1er)، قصد زيارة فرنسا. وكان أحمد بن أبي الضياف كاتب سرّ الباي وسفيره قد رافقه في رحلته تلك، عام 1846م، صحبة نخبة من موظّفي الحكومة مثل خزندار وخير الدين باشا. ووثّق رحلته في **إتحافه**[68]. وقد اختزل قانياج ذلك فقال: "كرّس ابن أبي الضياف الذي صحب الأمير إلى فرنسا فقرة حماسيّة لسرد هذه الرحلة"[69].

***المصاهرة:** لا يتمثّل قانياج هذا النوع من الصلات التي ربطت البايات، اختيارا منهم، بالعلماء إلاّ في إطار الانتقاد. فهو ينعت العلماء بالمحافظين والأكثر تعصّبا. وذلك في مسألة اليهوديّ الذي نُفّذ فيه قرار الإعدام سريعا بإيعاز من مستشاري الباي. ويخصّ قانياج الشيخ محمّد بيرم المفتي الأكبر وشيخ الإسلام، دون أن يغفل في كلّ مرّة عن التذكير بعلاقة المصاهرة بينه والباي، بصفة التعصّب محمّلا إيّاه مسؤوليّة ما حدث. إنّ تمثّله لما حدث، ها هنا، جعله يرى الباي بعين الخاضع لسلطة العالم الفاقد لكلّ دور، بل المتخلّي عن دوره لمن له بهم صلات اجتماعيّة كصلة المصاهرة مثلا. يقول: "إنّ السرعة التي انتهت بها قضيّة سفاز تدلّ على أنّ الباي خضع لضغط مستشاريه الأكثر تعصّبا: صهره المفتي الأكبر وشيخ الإسلام"[70]. ولهذه المصاهرة آثار أخرى من نوع تجرّؤ بعض العلماء على الرفض لما كان ارتآه نظراؤهم من وجوه إصلاح: "كان محمّد بيرم شيخ الإسلام وصهر الباي على رأس حزب محافظ يرفض الإصلاحات التي رعاها الوزير"[71]. ولئن ارتبط بعض البايات ببعض العلماء مصاهرة فإنّ هذا الضرب من العلاقات سرى في حاشية الباي نفسه. وقد أشار قانياج إلى علاقة مصاهرة مركّبة بين المماليك الثلاثة: خزندار وخير الدين ورستم. يقول متحدّثا عن الجنرال رستم: "كان عليه ...، وهو صهر مصطفى خزندار، أن يتزوّج ابنة خير الدين الكبرى، حفيدة خزندار"[72]. وخير الدين نفسه صهر لخزندار هذا. ولا يخفى على ذي نظر ما لعلاقة المصاهرة من أثر في توجيه الحكم وجهات قد تكون غير محسوبة العواقب.

ب. نموذجه: محمّد بيرم الخامس (1840-1889م)

عرّفه قانياج في الهامش تعريف مختزلا أكّد فيه بعض المناصب التي تقلّدها. يقول: "بيرم الخامس(محمّد بن مصطفى) مدير الجامع الأعظم. كلّفه خير الدين في أفريل 1874 بإدارة أملاك الحبس وسمّي مدير مطبعة الحكومة... وشارك في تأسيس المستشفى الصادقيّ". ويعود قانياج إلى تأكيد جمع الشيخ بيرم الخامس بين إدارتين خطيرتين ذات تأثير في الرأي العامّ وبناء الشخصيّة التونسيّة. وهما إدارة الجامع الأعظم "وهو كذلك مدير مطبعة الحكومة والجريدة الرسميّة في ماي 1875"[73]. ويخصّ قانياج، وهو ينعت العلماء بالمحافظين والأكثر تعصّبا في قضيّة اليهوديّ سفاز، الشيخ محمّد بيرم المفتي الأكبر وشيخ الإسلام، دون أن يغفل في كلّ مرّة عن التذكير بعلاقة المصاهرة بينه والباي، بصفة التعصّب محمّلا إيّاه مسؤوليّة ما حدث. ف"الباي خضع لضغط مستشاريه الأكثر تعصّبا: صهره المفتي الأكبر وشيخ الإسلام"[74]. ثمّ يغمز في شخصه متّهما إيّاه بخيانة الأمانة لسرقته الحروف العربيّة من مطبعة الباي زمن توجيهه لمجلّة المستقبل. يقول: "المستقلّ مجلّة أسبوعيّة عربيّة موجّهة لنشر الحملة المعادية للفرنسيّة... في الأوساط المسلمة. كانت الحروف العربيّة قد وفّرها الشيخ بيرم الذي سرقها ببساطة من مطبعة الباي الرسميّة التي كان مديرا لها"[75]. وقد كان أشار في موضع سابق، دون إفصاح عن الأسباب، إلى خذلان روستن(Roustan, Théodore)، قنصل فرنسا يومها، لبيرم الخامس"حين حاول خلال مهمّة في باريس، دون جدوى الحصول على دعوة روستن". ثمّ يرى أفول نجمه شيئا فشيئا في عالم السياسة. فيؤكّد انفصاله عن مهامّه السابقة الذكر واختياره الرحلة إلى بلدان أوروبيّة بديلا لما كان عليه من استقرار في تونس. يقول قانياج: "اغترب في أكتوبر 1879 بمناسبة الحجّ إلى مكّة. استقرّ في القسطنطينيّة ثمّ في مصر مع القيام برحلات كثيرة إلى أوروبا"[76].

2.4 الفصل في صلة البايات بالعلماء

أ- أشكاله:وفيه تنجلي آليّات السلطة لإسكات العلماء. وهي متعدّدة متنوّعة. منها تغييب العالم وعدم الاستئناس برأيه والحدّ من سلطة العلماء. ومنها وضع الباي القضاة في تبعيّة للمفتين وغموض هويّة العلماء ووضع الشيوخ تحت إمرة القيّاد بأمر الأمير. ومنها إقصاء العلماء عن مواقع القرار والقطيعة بين السلطة والعلماء والمواجهة.

لم ينبّه قانياج في محاولته ضبط الجذور التي منها انبثق مشروع الحماية الفرنسيّة في البلاد التونسيّة إلى منزلة العلماء العلميّة والاجتماعيّة، ولا هو حاول إماطة اللثام عن أثر العلماء علميّا وسياسيّا وعسكريّا في المشروع الحضاريّ يومها ولم يول أدنى اهتمام لتحرّكات العلماء الميدانيّة. أفهل يكون العلماء في تلك الحقبة مغمورين أم ترى نفوذ البايات قد غطّى على وجودهم باتّخاذ بدائل لهم من المماليك وبما فرض عليهم من قيود بلغت حدّ النفي والسجن والتعذيب والتنكيل والقتل؟

إنّ الناظر في ما تمثّله قانياج من أحداث ذينك العقدين السابقين لانتصاب الحماية الفرنسيّة بتونس يسجّل غياب العالم اسما وهيئة وفعلا. والاستثناءات في ذلك قليلة، ويسجّل، أيضا، حضور البايات ومقرّبيهم من المماليك والوجهاء حضورا يُترع المشهد. وليس في ذلك تحامل على ذوي النفوذ. إذ لا يمكن بأيّ حال التغاضي على ما أتاه بعض البايات، في وقت مبكّر، من جهود إصلاحيّة لا سيّما في مجال التعليم. وقد أشّر قانياج على هذا حين قال: "منشور أحمد باي في فاتح نوفمبر 1842 كان قد نظّم تعليم الجامع الأعظم بفرض برنامج دروس ونظام امتحانات. ثلاثون مدرّسا من المذهبين كانوا قد عُيّنوا وأنشئت أحباس لإعالتهم"[77]. لكنّ هذا النوع من الإجراءات، حسب ما يذهب إليه قانياج، لم يؤت أكله لأنّ الخلل منهجيّ بالأساس. وهذه الإشارة في حدّ ذاتها تمثّل خطورة في مجال بناء العقول وتكوين الشخصيّات ومن ثمّ قيام المجتمعات. ومن هنا لا يمكن أن تتطوّر الأفكار ولا المؤسّسات إذا كان التعليم قائما على تمارين الذاكرة واسترجاع ما تخلّد فيها. وهنا يستدرك قانياج على ما أقرّه من إصلاحات. فيقول: "لكن أيّا من هذه الإجراءات لم يجلب أيّ إصلاح حقيقيّ لتعليم الجامع الذي كان ظلّ مؤسّسا، كما كان في الماضي، دون جدوى على تمارين الذاكرة"[78].

* **تغييب العالم وعدم الاستئناس برأه:** لقد قدّم البايات جملة إصلاحات. غير أنّهم لم يستندوا إلى فكر إصلاحيّ مؤسّس على قراءة تجمع بين معرفة الواقع وواقع المعرفة، ولم يستأنسوا بذوي العلم والاختصاص بل استبدلوهم بغير ذوي الخبرة. وبذلك تمّ القضاء على دور العالم المعرفيّ التربويّ الإصلاحيّ وأضحى مجرّد عون للقيّاد يأتمر بأمرهم. ومن ثمّ بان أثره في إفلاس الدولة والوقوع في المديونيّة. يقول قانياج منتقدا صرف مال الدولة في رغائب السلطان، معرّضا بجهله وحاجته إلى التعلّم من المناهج الفرنسيّة: "ابتنى أحمد(دون لقب)، الذي كان يقيم عادة في باردو، قصرًا صيفيّا على الساحل في حلق الوادي. أراد أن تكون له إقامة الشتاء أيضا... فرساي تونسيّ: المحمّديّة... ابتلع الملايين في مبانيه... لم يكن أحمد باي ليفكّر في أن يتعلّم بفرنسا مناهج الميزانيّة..."[79].

***الحدّ من سلطة العلماء:** والمثال في ذلك إنشاء محاكم لغير المسلمين. وكانت قضيّة اليهوديّ صمويل بطّو سفاز[80] أحد عواملها.وكان لذلك الحدّ أثره الآنيّ والزمانيّ. ولكن كيف تمثّل قانياج هذا الأمر؟ وبأيّ حيّز زمنيّ وصله؟ وأين تبدّى له موضع الإشكال؟ يقول مثمّنا جهود الباي في الشأن القضائيّ مشيرا إلى تجاوز الإشكال المتمثّل في ارتباط المحاكم بالشرع: "كانت إصلاحات محمّد الصادق أكثر تجذّرا بعد قضيّة سفاز لتجنّب إخضاع غير المسلمين، مستقبلا، لقرارات محكمة دينيّة مثل الشرع. وكان مستشارو الباي قد نظّموا تسلسلا هرميّا كاملا للمحاكم التي تحكم بقواعد خالية من أيّ إلهام دينيّ، تقليدا لتلك التي كانت قد حرّرت في تركيا"[81]. يقلّ مستوى الإضمار في خطاب قانياج هنا ويربو الإفصاح عن الرأي والتصريح بالموقف. وهذا قوله: "وكان الحلّ الوحيد في الحصول على تغيير في التشريع التونسيّ"[82].

***وضع الباي القضاة في تبعيّة للمفتين:** هذه التبعيّة من شأنها أن تخلق عداء بين هاتين الفئتين المتنفّذتين. فالسلطة القضائيّة إذا انكسرت شوكتها لا يحمد عقبى ما تأتيه من أفعال غير محسوبة. ولئن كان التغيير في ظاهره تجديدا فإنّه يخفي تغييرا في تراتبيّة السلطات الثلاث. يقول قانياج: "كانت إصلاحات محمّد باي ومحمّد الصادق الدستوريّة قد غيّرت بعمق التنظيم القضائيّ التقليديّ. في أوت 1856 أعاد محمّد باي تنظيم محكمة الشرع الدينيّة في تونس بجمع القضاة والمفتين من المذهبين في المبنى السابق لمجلس الميليشيا التركيّة. وهكذا تمّ وضع القضاة في تبعيّة المفتين الذين كان رئيسهم المفتي الحنفيّ الأكبر يرأس المحكمة"[83].

***غموض هويّة العلماء:** فلا وجه علميّ لهم ولا منزلة. ف"الكثير منهم لم يكن سوى مجرّد أناس عاجزين عن رعاية واحد أو اثنين من خيول السرج"[84]. إنّها صورة تنمّ عن وضع مهين للعالم.

***الشيوخ تحت إمرة القيّاد بأمر الأمير:** "كانت الإدارة المحلّيّة التونسيّة بدائيّة للغاية... وكان تحت حكمهم(القيّاد) زعماء محلّيّون وشيوخ... وكان يكفي ستّون من القيّاد وقرابة ألفي شيخ لإبقاء أكثر من مليون من السكّان، في الطاعة"[85]. وتبدو منزلة القيّاد أرفع من منزلة الشيوخ الذين كانوا "تحت حكم القايد وخلفاواته، يختارهم القايد... هم مكلّفون بحفظ النظام والمعاونة في جلب الضرائب..."[86]. وفي هذه الاختيارات والتعيينات يلاحظ اختلاف ثان في المنزلة بين الشيوخ وما يسمّى بالوجهاء. فكأنّ منزلة الشيخ ترتفع كلّما تمّ انتدابه في منزلة الوجيه. والطريف أنّ الوجهاء كانوا "ينتدبون خاصّة من شيوخ الزوايا والأخويّات[87] الدينيّة..."[88]. ولا يخفى على ذي نظر خطر ما يؤول إليه أمر السلطة إذا آل أمرها إلى الزوايا التي راهن عليها المحتلّ أيّما رهان.

***إقصاء العلماء عن مواقع القرار:** وهذا من ملامح السلطة المطلقة. فالبايات يفوّضون أمور الدولة لأقارب ومقرّبين من مماليك لا كفاءة لهم، غالبا، في تسيير البلاد ولا بطانة يعوّل عليها في توجيه الباي. والمثال في ذلك المملوك رستم وتسلّقه المناصب. يختزل قانياج التعريف به. فيقول: "كان الجنرال رستم مملوكا من أصل شركسيّ. وكان تلميذا في مدرسة باردو الحربيّة"[89]. ثمّ يحاول أن يأتي على ذكر المناصب التي تقلّدها بين 1860 1878. لقد "عُيّن قائدا للحرس البايويّ. وأصبح مديرًا لوزارة الداخليّة... ثمّ في وزارة الخارجيّة، وكلّف بقمع التمرّد في غرب الحاضرة... ثمّ وزير الداخليّة..."[90]. إنّها مسيرة وظيفيّة مرموقة ختمها رستم بممارسة مهامّ وزير الحرب. لقد أقصي علماء الاختصاص الإداريّ والحربيّ حتّى لكأنّها مهارات اجتمعت في شخص واحد هو المملوك رستم.

***القطيعة بين السلطة والعلماء والمواجهة:** كان لقرار مجلس الباي مضاعفة المجبى أو "الإعانة"[91] قد أفرز أشكالا من التمرّد كادت تمسح البلاد جنوبا وشمالا شرقا وغربا. وكانت ثورة علي بن غذاهم عام 1864م[92]. وقد صوّر قانياج وحشيّة مشهد التنكيل بالعلماء بأمر من رستم، صنيعة الباي، مؤكّدا أهمّيّة دور قنصل فرنسا في إيقافه. نورد هنا الشاهد على طوله: "ورغم الأمان، فإنّ القمع لم يتوقّف بعد في أفريل 1865.لم يكن رستم مكتفيا باتخاذ إجراءات صارمة على الفور. فأرسل إلى باردو، من 250 إلى 300 شيخ مقيّدين بالسلاسل من الرقاب. وكانوا يضربون في فناء القصر، تحت نوافذ الأميرات، حتّى الموت. كانت احتجاجات قنصل فرنسا الغاضبة هي التي استلّت من خزندار استنكاره لهذه الممارسات الوحشيّة[93]"[94].

ب- نموذجه: أحمد بن أبي الضياف(1804/1874م)

لا يكاد يغيب ذكر ابن أبي الضياف عن صفحات كتاب قانياج هذا. فبالإضافة إلى التعرّض إليه باعتباره إحدى أهمّ الشخصيّات، إلى جانب خير الدين باشا، المؤثّرة في الفترة التي سبقت فرض الحماية على تونس، فإنّه قد اعتمده مرجعا مهمّا في استيقاء المعلومة. يقول بعد جرد ما اعتمد من كتب: "إلى هذه الكتب المنشورة يجب إضافة حوليّة ابن أبي الضياف المخطوطة التي يشتغل فيها الآن فريق من الباحثين التونسيّين لوضع النصّ العربيّ قصد نشره وترجمته..."[95]. عرّف قانياج ابن أبي الضياف في أحد هوامش الكتاب تعريفا مفصّلا. فهو "من عائلة أصيلة قبيلة أولاد عون... دخل عام 1826 الإدارة التونسيّة بصفة كاتب بعد دراسات في الجامع الأعظم... تقلّد مهامّ باش خطيب...يبدو أنّه شديد الصلة بخزندار والقائد نسيم... كلّف بتحرير الدستور ثمّ نائب رئيس المجلس في نوفمبر 1862[96]. ولن يكون له سوى دور باهت بعد تمرّد 1864"[97]. لابن أبي الضياف، بحسب رؤية قانياج، جملة مواقف قابلة لترشّحه مثالا يحتذى.

* في موقفه من اليهود نقول: لمّا كانت المسألة اليهوديّة ممّا يوطّئ له المحتلّ ويتّخذه تعلّة لوجوده والتشريع له فإنّ أيّ سلوك أو موقف تجاه هذه المسألة، سلبا كان أو إيجابا يُقرأ ويحلّل ويؤوّل. وقد لفت ابن أبي الضياف أنظار قانياج بما أبداه من تسامح في هذه المسألة قد يكون وفق تمثّلات قانياج بلغ حدّ التعاطف معه والدفاع عنه والانتصار له. يقول:

"ولا يهوديّ يحضر في المجلس الأعلى. اندهش ابن أبي الضياف من هذا: "ألا يمثّل اليهود جزءا من المملكة؟ ألا يوجد من بينهم من له قيمة إنسانيّة مثاليّة؟"[98].

* وفي موقفه من الحضارة الأوروبيّة نرى أنّ ابن أبي الضياف حين كرّس فقرة حماسيّة لسرد الرحلة التي رافق فيها المشير أحمد باي إلى فرنسا، وقد تقدّم ذكرها، كان، بذلك، قد عبّر عن استحسانه للحضارة الأوروبيّة ممثّلة في فرنسا وانبهاره بمعالم التقدّم فيها. وهذا في حدّ ذاته غنم أسنى لفرنسا. إذ من المؤكّد أن يكون تأثير هذا العالم في ذاك الباي عظيما من جهة دفعه إلى الاقتداء بالأمم المتقدّمة والسير في صفوفهم.

* وفي رؤيته في النفقات نورد مقالة قانياج فيه: "يعود ابن أبي الضياف، مرارا، في مصنّفه إلى النفقات...وهي برأيه نفقات يمكن أن تكون سببا رئيسيّا في صعوبات الدولة الماليّة". أدرك قانياج أنّ ابن أبي الضياف كان واعيا بالمخاطر التي تهدّد بلاده من جرّاء إهدار البايات المال العامّ والتباري في تلبية رغائبهم الخاصّة.

* وفي صلة قنصل فرنسا ليون روش(Roches, léon) يذهب قانياج إلى ابن أبي الضياف يملك من الفطنة ما يمكّنه من معرفة أطماع هذا القنصل ودورانه حول الباي وإظهاره نصحه. ويدرك قانياج أنّ التعاطي مع العالم الفطن أفيد وأنجع لأنّ قليل الفطنة قد يفعل بنفسه وبغيره ما لا يفعله العاقل بعدوّه. يقول: "مع تفطّنه إلى أطماع القنصل الفرنسيّ ليون روش..."[99].

وقد اعتبره عالما تنويريّا لمواقفه الحضاريّة. فهو مثال يحتذى في شأن حقوق الناس ومصلحة البلاد العامّة.

5.خاتمة:

*** خلاصات:** في ثلاث:

أ. طرح قانياج في كتابه هذا مسائل متنوّعة تهمّ الفترة السابقة لفرض الحماية بحثا عن الأسباب الكامنة وراء سقوط البلاد التونسيّة في قبضة الاحتلال الفرنسيّ. وقد رشّح المسألة الاقتصاديّة مدخلا رئيسا لدراسة المسألة. غير أنّ خطابه أكّد للمتلقّي وجود مدخل أخطر هو المدخل العلميّ. فجهلُ البايات عامّة بتسيير دواليب الحكم وعدم استئناسهم بأهل الاختصاص أسقط البلاد في مديونيّة كارثيّة.

ب. برهن قانياج على فساد حكم البايات إدارة وسياسة وعلاقات. ومثّل لذلك بوقائع مشدود بعضها إلى بعض: إهدار مال الدولة في شأن الباي الخاصّ ومستخدميه، عقبه إفلاس فمديونيّة مرهقة، فمضاعفة مجبى: فثورة فقمع وتنكيل. ومن ثمّ إنهاك أرباب الحكم والمحكومين والوقوع فريسة للطامعين.

ج. لم تخرج الصلة بين العلماء والبايات عن صنفين يعبّر عليهما، في الغالب بالوصل والفصل أو القطيعة والتوافق. وأمّا ما يضاف كصفة الحياد فإنّه يجانب المدرَك من الواقع. فالعالم لا يمكنه إلاّ أن ينحاز لعلمه.

*** استنتاجات:** في ثلاث:

أ. لا يمكن مؤاخذة هذا المستعرب على إغفال بيان الصلة بين هذين المتعاقدين حضاريّا: العالم والسائس ولا على عدم تقصّي أخبارهما المشتركة. إذ لم يراهن على هذا المدخل العلميّ وإنّما راهن على المدخل الاقتصاديّ.وهو، برأينا، نتيجة المدخل العلميّ الممثّل في صلة العلماء بالبايات.

ب. حين نحاول إيجاد الصلة بين العالم والسائس في حقبة هامّة من تاريخ تونس الحديث ندرك أنّ البحث مدوّنة بعينها قد لا يثمر جيّدا. ينبغي تنويع زوايا النظر لا سيّما في مسألتين خطيرتين: العلم والسياسة.

ج. يتفرّع عن هذه الصلة مبحثان هامّان: علم السياسة وسياسة العلم. على العالم معرفة إغراءات السياسة وإكراهاتها. وعلى السائس معرفة طرائق التعاطي مع العلم وأهله. وهذا ما لم يتوفّر في الحقبة المدروسة.

*** توصيات:** في ثلاث:

أ. توفّر أدبيّات الاحتلال ولا سيّما الاستعرابيّة منها معارف لا غنى لنا عن إيلائها ما تحتاجه من البحث الأكاديميّ الجادّ. فالقضايا الخفية من هذا التاريخ قد آن لها أن تستقطب اهتمام الباحثين.

ب. تعدّ هذه الأدبيّات إرثا مشتركا بين الباحث التونسيّ وصنوه الفرنسيّ. فلا مناص والحال تلك من تفعيل شراكات بحثيّة علميّة باتت اليوم أكيدة.

ج. إنجاز بحوث تنهج منهج المقارنة بين ما توفّره كتابات الآخر عن تاريخنا وما كتبه علماؤنا فيه للوقوف على المبرّرات العميقة لسقوط السلطة. مثال ذلك قيام دراسة مقارنيّة بين مصنّف قانياج هذا وإتحاف ابن أبي الضياف.

6.الهوامش :

[1] Ganiage, Jean, **Les Origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)**. Berg-Edition, les presses de Simpact, Tunis, 2015. (1ere éd : l'Institut de Hautes Etudes de Tunis, Paris, PUF, 776 pages, in-8°, 1959.)

[22] التهانوي، محمّد علي، **كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق: رفيق العجم وعلي دحروج، مكتبة لبنان: ناشرون، لبنان، 1996، ط1، صص1219-1230.

[3] أعلامها كثر. من بينهم: جان بياجي ومشال دينس وسارج موسكوفيسي:

* Piaget, Jean, **la formation du symbole chez l'enfant**, éd: Delachaux et Niéstlé, Paris, 1976.
* Moscovici , Serge, **La Psychanalyse ,Son Image Et Son Public** .Paris: Presse Universitaire De France, 1976.
* Denis, Michel, **Les images mentales**, PUF, Paris, 1979.

[4] مجمع اللغة العربيّة، **المعجم الوسيط**، مطبعة الشروق الدوليّة، مصر، 1425هـ-2004م، ط4، ج2، ص 853.

[5] Littré, Émile, **Dictionnaire de la langue française**, T4, Q-Z, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1874, pp. 1647-1648.

[6] السويسي، كوثر، **التمثّلات الاجتماعيّة: مقاربة لدراسة السلوك والمواقف والاتّجاهات وفهم آليّات الهويّة**، المجلّة العربيّة لعلم النفس، المجلّد 1، العدد 1، صيف 2016، ص51.

[7] المرجع نفسه، ص51.

[8] م. ن، ص54.

[9] Moscovici , Serge, ***La Psychanalyse ,Son Image Et Son Public*** .Paris: Presse Universitaire De France, p. 39.

[10] Ibid, p. 65.

[11] وقد مكّننا الأستاذ عادل بن يوسف، وهو واحد من الذين تصدّوا لتعريب كتاب قانياج هذا، من نسخة رقميّة. ولكن بعد كتابة المقال الذي اعتمدنا فيه النسخة الفرنسيّة. ترجمات كتاب قانياج:

*أصول **الحماية الفرنسيّة للإيالة التونسيّة**، ترجمة: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية، الدار التونسيّة للنشر، ط1، 1965.

*أصول **الحماية الفرنسيّة على تونس(1861-1881)**، ترجمة: عادل بن يوسف ومحمّد محسن البوّاب، برق للنشر والتوزيع، تونس، 2012.

*جذور **الحماية الفرنسيّة بالبلاد التونسيّة 1861-1881**، ترجمة: عبد الجليل بو قرّة، مراجعة: إبراهيم جدلة، المركز الوطنيّ للترجمة، تونس، دار سينترا، 2014.

[12] Ganiage, op. cit, p. 3.

[13] Émerit, Marcel, ***Jean Ganiage, Les Origines du Protectorat français en Tunisie(1861-1881)***, In Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 16e année, N. 2, 1961, p. 386.

[14] Ibid, p. 388.

[15] لمزيد التوسّع انظر: قانياج، جان، **أصول الحماية الفرنسيّة على تونس(1861-1881)**، ترجمة: عادل بن يوسف ومحمّد محسن البوّاب، برق للنشر والتوزيع، تونس، 2012، صص8-11.

[16] نذكر منها:

* ***Une affaire tunisienne : l'affaire de l'Enfida, 1880-1882***... (1956)
* ***L'Expansion coloniale et les rivalités internationales***... (1973)
* ***Histoire contemporaine du Maghreb*** (1994)

[17] النيفر، احميدة، **الشيخ السلاّمي: آخر العمائم؟**، الوطن: الصفحة الرقميّة، تاريخ النشر: 19-09-2019.
http://alwatannews.tn/article/11277

[18] Ganiage, op. cit, p. 111.

[19] يمكن الإفادة ممّا كتبه كلّ من ديبون وكُبّلاني في هذا الغرض. وهذا مقتطف:"وُفّق في ضمان دعم الشيخيّة والطيبيّة وفروعا من القادريّة ناهيك عن التيجانيّة الذين عزّزهم في إخلاصهم لفرنسا". الفعل مسند إلى جول كامبون(Jules Cambon)، مقيم فرنسا بالجزائر(1891).
- Depont. Octave et Coppolani. Xavier, ***Les confréries religieuses musulmanes***, publié sous le patronage de M. Jules Cambon, Alger, A. Jourdan : Imprimeur- Libraire- Éditeur, 4 place du gouvernement, 1897, p. 265.

[20] وهو "أبو النخبة مصطفى بن محمّد بن عزّوز: العالم الوليّ العارف بالله الفقيه التقيّ... من بيت علم وصلاح...توفّي 1865م".انظر: محمد بن محمد، مخلوف، **شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة**، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلميّة، 1424هـ/2003م، ج 1، ص 559.

[21] Ganiage, op. cit, p. 111.

[22] Ganiage, op. cit, p. 95.
[23] Ibid, p. 127(note 45).
[24] Ibid, p. 127(note 45).
[25] Ibid, p. 61.
[26] Ganiage, op.cit, p. 61(note 36).

[27] وترجمته عدد 1676 في **شجرة النور الزكيّة**: "الوزير رئيس الكتاب المشهور... قطب فلك السياسة ومركز دائرة أرباب الرئاسة... أخذ عن أعلام منهم الشيخ إبراهيم الرياحي... (توفّي 1325هـ/1907م). انظر: مخلوف، محمد بن محمد، **شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة**، بيروت لبنان، دار الكتب العلميّة، 1424هـ/2003م، ج 1، ط1،ص597.

[28] Ganiage, op.cit, p. 170.
[29] Ibid, p. 172.

[30] تفصيل الأحداث في إتحاف ابن أبي الضياف بدءا من ص 111 من الجزء الخامس.

[31] Ganiage, op.cit, p. 144.
[32] Ganiage, op.cit, pp. 143-144.
[33] Idem.
[34] Ganiage, op.cit, p. 126.
[35] Ibid, p. 54(note 12).
[36] Ganiage, op.cit, p. 54(note 12).

[37] والعلماء من أهل المجلس الشرعيّ العليّ، وهم: شيخ الإسلام محمّد بيرم والشيخ أحمد بن حسين باش مفتي المالكيّة والشيخ محمّد بن الخوجة المفتي الحنفيّ والشيخ محمّد البنا المفتي المالكيّ... انظر: ابن أبي الضياف، **الإتحاف**، ج 4، صص 246-248.

[38] أي جريدة الرائد التونسيّ.

[39] Ganiage, op.cit, p. 152.
[40] Ibid, p. 162(note 104).
[41] Ganiage, op.cit, p. 4.

[42]التونسيّ، خير الدين، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تحقيق: المنصف الشنوفي، مجمع بيت الحكمة.قرطاج، تونس، ط1، 2013 ، ص94.

[43] Ganiage, op.cit, p. 285.
[44] Ganiage, op.cit, p. 284.
[45] Ganiage, op.cit, p. 59(note 23).
[46] Idem.
[47] Ibid, p. 135.
[48] Ganiage, op.cit, p. 286.

[49] Ibid, p. 288.
[50] Ganiag, op.cit, p. 355.
[51] Ibid, p. 86.
[52] ولقانياج فيها تصنيف تقدّم ذكره. والهنشير ب100 ألف هكتار، منحة الباي لخير الدين عوضا عن جرايته العمريّة التي عجزت تسديدها. باعه خير الدين، وهو خارج البلاد إلى شركة مرسيليا للقرض(Société marseillaise de crédit)
[53] اكتست مسألة النفيضة أهمّيّة بالغة وأسالت حبرا كثيرا. ومن الذين تصدّوا للنظر فيها وتحليل أبعادها، راي(Rey). انظر:

Rey, Albert, ***Mémoire sur l'affaire de l'Enfida, propriété acquise de S.A. Khérédine Pacha (Tunisie)***, Paris, 1881, p.16.

[54] Ganiage, p. 370(note 4).
[55] وهنا المفارقة تكمن المفارقة بين هذا التمثّل لصورة الشيخ الورتاني وتلك التي قدّمه فيها هذا مخلوف: "أبو العبّاس الشيخ أحمد الورتتاني: عالم...وإمام...كان متفنّنا في العلوم وأمتنها اللغة والنحو... من شيوخ الطبقة الأولى ورئيس جمعيّة الأوقاف...أخذ عن الشيخ ابن ملّوكة وغيره. وأقرأ العلوم وحصل النفع به...توفّي 1884م". انظر: محمد بن محمد، مخلوف، **شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة**، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلميّة، 1424هـ/2003م، ج 1، ص 589.

[56] Ganiage, op.cit, p. 11.
[57] Ibid, p. 441.
[58] Ganiage, op.cit, p. 284.
[59] Ibid, p. 288.
[60] Ganiage, op.cit, p. 288.
[61] Ibid, p. 61.
[62] Ibid, p. 53.
[63] Idem.
[64] Idem.
[65] Ibid, p. 28.
[66] Ganiage, op.cit, p. 28.

[67] حكم بين 1837 و1855م.
[68] لتفاصيل الرحلة انظر: الإتحاف، ج 3، صص 92-112.

[69] Ganiage, op.cit, p. 78(note 98).
[70] Ganiage, op.cit, p. 53.
[71] Ibid, p. 126.
[72] Ibid, p. 59(note 29).
[73] Ibid, p. 284.
[74] Ibid, p. 53.
[75] Ibid, p. 359.
[76] Ganiage, p. 350(note 89).
[77] Ibid, p. 286.
[78] Ganiage, op.cit, p. 286(note 47).
[79] Ibid, p. 120.
[80] حادثة مقتل اليهوديّ بطّو(Batto) خديم نسيم قائد اليهود في شتم مسلم وسبّ دينه (جويلية 1857(ابن أبي الضياف) خلافا لقانياج الذي أثبتها في جوان 1857(ص52)، مع اختلاف في الاسم(Samuel Sfez) واسمه الكامل صمويل بطّو سفاز(Samuel "Batto" Sfez). انظر: ابن أبي الضياف، **الإتحاف**، ج4، ص233.

[81] Ganiage, op.cit, pp. 91-92.
[82] Ibid, p. 53.
[83] Ganiage, op.cit, pp. 91-92.
[84] Ibid, p. 91.
[85] Ibid, p. 89.
[86] Ibid, p. 91.

[87] عرّبنا (confréries) بالأخويّات. و"الأخويّة الدينيّة : جمعيّة دينيّة أو للبرّ والإحسان". انظر: سهيل، إدريس، **المنهل- قاموس فرنسيّ عربيّ**، ط45، بيروت، دار الآداب، 2013، ص 287.

[88] Ganiage, op.cit, p. 60.
[89] Ibid, p. 59(note 29).
[90] Ganiage, op.cit, p. 59(note 29).
[91] تفاصيل مهمّة. انظر: شاطر، خليفة وآخرون، **تونس عبر التاريخ**، الجزء 3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، 2005، صص13 -17. انظر كذلك: ابن أبي الضياف، **الإتحاف**، ج5 ص112 وما يليها.
[92] انظر الباب الخامس من النسخة الفرنسيّة بدءا من الصفحة 143. وقد ترجمته عام 1965 لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة ونشرته الدار التونسيّة للنشر.
[93] تفصيل الخبر في **الإتحاف** (مع اختلاف في عدد المنقادين وهويّتهم وذكر أسمائهم ورتبهم وطرق تعذيبهم ومصيرهم). انظر: ابن أبي الضياف، **الإتحاف**، ج6 ص33 وما يليها.
[94] Ganiage, op.cit, pp. 174-175.
[95] Ibid, p. 456.
[96] أضاف مخلوف: "أبو العبّاس أحمد بن أبي الضياف التونسيّ الوزير دائرة فلك الأدب وقطبه... تسنّم الخطط النبيهة من الكتابة إلى الوزارة... أخذ عن أعلام كالشيخ إبراهيم الرياحي... وهو أوّل من كتب للدولة العليّة بالقلم العربيّ..."انظر: مخلوف، **شجرة النور الزكيّة** ،م. س، ج 1، ص 563.
[97] Ganiage, op.cit, p. 61(note 38).
[98] Ibid, p. 60(note 32).
[99] Ibid, p. 127(note 45).